Journal of Alasmarya University
Volume 11, June 2009

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الحادي عشر، يونيو 2009

عبد السلام التاجوري مؤرخا لطريقة جده (السلامية) وللحياة الثقافية في ليبيا – في العهد العثماني الأول

د. عمار محمد جحيدر*

مدخل

تتصل هذه المساهمة المتواضعة بأعمال المؤتمر العلمي المنعقد حول (المنارة الأسمرية من الزاوية إلى الجامعة) بسببين رئيسين:

أحدهما: أنّ عبد السلام بن عثمان التاجوري من أبرز أحفاد الشيخ الأسمر وأكثرهم مساهمة وعطاء لتاريخنا الثقافي؛ وهو: عبد السلام بن عثمان بن عزالدين بن عبد الوهاب بن عبدالسلام الأسمر.

ثانيهما: أنّه من أبرز مؤرخي (الطريقة السلامية) التي ينتمي إلى مؤسسها نسبا وذهنية وسلوكا؛ من خلال أبرز آثاره في هذا السياق وهو عمله الذي لايزال مخطوطا (فتح العليم في مناقب سيدي عبد السلام بن سليم).

وقد عنيت في مساهمة بحثية سابقة بمتابعة هذا (الفقيه، الصوفي، المؤرخ) والتركيز على خاتمة مخطوطته (فتح العليم) التي دوّن فيها نشأته وسيرته العلمية من خلال تراجم شيوخه، ونشرت تلك التراجم في دراسة مطوّلة بعنوان: «الحياة الثقافية في ليبيا – في العهد العثماني الأول: عبد السلام بن عثمان التاجوري 1058–1139هـ/1648–1727م وتراجم شيوخه نموذجا» في العدد الرابع من حولية مجمع اللغة العربية

---

* مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية.

(طرابلس 2006)[1]. ومن الجلي أنّ تلك المساهمة كانت مركزة على ورقات الخاتمة القليلة التي جاءت نصّا محرّرا لا وهن فيه غالبا، ولم أعد إلى أبواب المخطوطة السابقة التي غلب عليها الخطاب المناقبي إلا بالقدر الذي دعتني إليه ضرورات التوطئة الدراسية هناك. وإنني لأرجو أن تكون تلك المساهمة المنشورة كافية لتقديم عبد السلام التاجوري مؤرخا جزئيا للحياة الثقافية في عهده من خلال سيرته العلمية وتراجم شيوخه (القرن 11هـ/17م).

في حين جاء انعقاد هذا المؤتمر العلمي الموقر خير حافز لي على معاودة النظر -من جديد- في تلك الأبواب السابقة من مخطوطة فتح العليم، والعودة إليها في هذه المساهمة المحدودة المزيدة التي أرجو من خلالها أيضا إلقاء بعض الضوء على هذا الأسمري الحفيد مؤرخا مناقبيالطريقة جده. ولا أخفي على القاريء الكريم أنّ هذا الخطاب المناقبي الغالب عليها الذي يسفّ أحيانا إلى وهدة الخرافة كان ينأى بي غالبا عن القبول التوثيقي لكثير من معطياتها، ويصرفني عنها خلال السنوات السابقة، غير أنّ ذلك لا يمنع على أيّة حال من قراءات أخرى مغايرة لمثل هذا النصّ المناقبي الطريف الذي يعدّ من أهمّ مؤلّفات المناقب في المكتبة الليبية؛ بعد (روضة الأزهار) التي وضعها عبد الكريم البرموني أحد أتباع الشيخ الأسمر ومريديه، ولئن كان نصّ روضة الأزهار يتميّز بمعاصرته للشيخ ونشأة طريقته، على ما به من خطاب مناقبي مماثل أيضا، فإنّ أبرز مزايا مخطوطة فتح العليم في هذا السياق التراتبي أنها جاءت بعد أمّها، أو جدّتها الثقافية الأولى بنحو قرن؛ وهو ما يتيح لها زمنيا -على الأقل- أن تضيف إلى حمولتها المناقبية اللاحقة مزيدا من المعطيات الجديدة!

وقد عني الأخ الفاضل الباحث الدؤوب الدكتور جمعة الفيتوري بتحقيق مخطوطة (فتح العليم) وفرغ منها -فيما علمت منه- أخيرا. كما فوجئت خلال انعقاد هذا المؤتمر بتلك الإشارة القيّمة التي أدلى بها، في مناقشة هذه المساهمة نفسها، الأخ الفاضل الدكتور مراد الزبيدي -أحد المشاركين من تونس الشقيقة- وفحواها أنّ الباحثة التونسية (نادية مفتاح) قد أنجزت رسالة جامعية -في مستوى شهادة التعمق في البحث- بعنوان: (دراسة وتحقيق كتاب فتح العليم في مناقب سيدي عبد السلام بن سليم) في كلية

1- اكتفيت هنا بهذه المساهمة المتفرعة المزيدة دون إلحاقها بالحواشي التوثيقية المعتادة، لذلك فإنّ القاريء الكريم مدعو إلى قراءة تلك الدراسة المطوّلة قبل هذه الخلاصة.

العلـوم الإنـسانية والاجتماعية بالجامعة التونسية سنة (2000) ولكنها لم تنشر بعد. ومع أسفي البالغ على عدم اطلاعي على هذا العمل الجامعي المتعلق بعبد السلام التاجوري؛ فـإنّ ممـا يـثلج الـصدر حقـا -فـضلا عـن الإشارات السابقة أيضا- صدور عمله الفقهي المعـروف (تذيـيل المعـيار) أخـيرا بتحقيق الأخ الفاضل الفقيه الباحث الدؤوب الدكتور جمعـة الزريقي[2]. وستتيح لنا هذه المساهمات على اختلاف مشاربها جميعا مزيدا من المعطـيات الموضـوعية لدراسـة أكثـر سعة وشمولا عن (الفقيه، الصوفي، المؤرخ) عبد السلام بن عثمان التاجوري.

2- طرابلس: جمعية الدعوة الإسلامية، 5/2008 مجلدات مع مجلد مزيد للفهارس.

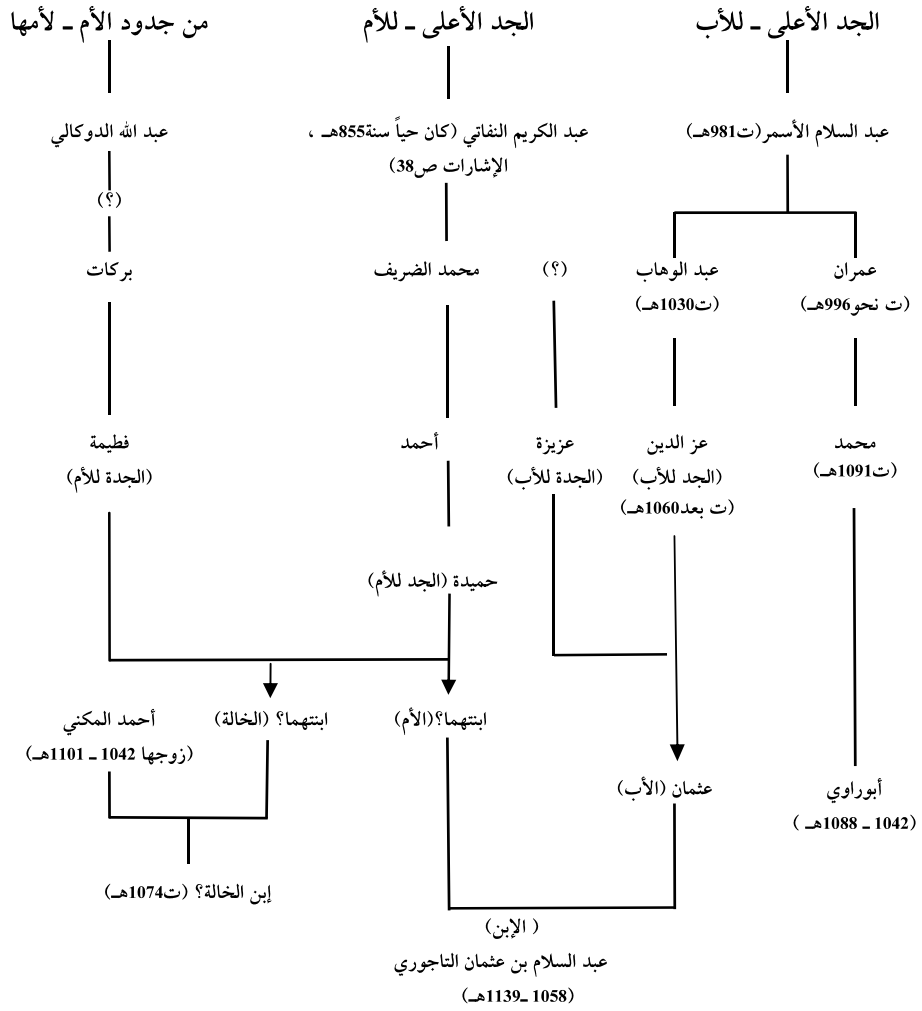

(شجرة الأسرة والمحيط العائلي وفقاً لمعطيات المخطوطة)

تعدد البيئات المتقاربة في تاريخ ليبيا الثقافي

تتسم الحياة الثقافية في ليبيا خلال العصر الحديث بتعدد البيئات المتقاربة المتفاوتة التي يكمل بعضها بعضا؛ إذ لم يستأثر المركز السياسي للإيالة (طرابلس) بجلّ الفعاليات التعليمية الثقافية، خلافا لما نلحظه -على وجه الخصوص- في كل من مصر (الأزهر) وتونس (الزيتونة) والمغرب (القرويين). وقد تشبه طرابلس في ذلك -إلى حدّ ملحوظ- إيالة الجزائر التي أرّخ لها المؤرخ الجليل الدكتور أبو القاسم سعد الله في عمله الكبير القيم (تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري / 16-20م) الجزائر 1981. وآية ذلك أنّ كثيرا من آثارنا الثقافية ورصيدنا المخطوط لم ينجز في العاصمة طرابلس، وإنّما دوّن العديد من تلك الآثار -على اختلاف موضوعاتها وتفاوت أحجامها- في مختلف تلك البيئات الثقافية المتناثرة بين الغرب والشرق والجنوب.

ومنها -على سبيل المثال لا الحصر-: جنزور، والزاوية الغربية، وزوايا الجبل الغربي العديدة (وأبرزها زاوية أبي ماضي في ككلا) مع غيرها من الزوايا الإباضية هناك أيضا، وغدامس، وغات، وتاجوراء، ومسلاتة، وساحل الأحامد، وزليتن، ومصراتة، وبني وليد، وبنغازي، والبيضاء، ودرنة، وأوجلة، والجغبوب، وهون، وسوكنة، وودان، وسبها، ومرزق ... إلى غيرها من الزوايا والبيئات التعليمية المتقاربة المتفاوتة التي قدّر لها أن تسهم -بهذا القدر أو ذاك- في تشكيل لوحة الحياة الثقافية في ليبيا خلال العصر الحديث وهو ما تفصح عنه وتشير إليه بعض الآثار المدوّنة، ومعطيات العمل الميداني المعاصر هنا وهناك.

الزاوية الأسمرية بزليتن ومدرسة مراد آغا بتاجوراء
(مقاربة أولية لتوثيق الصلة بين المؤسستين)

انطلاقا من الإشارة المدخلية المدرجة أعلاه، أودّ أن أشير هنا -بإيجاز أيضا- إلى قدر من الصلات والتكامل بين هاتين المؤسستين؛ نموذجا تطبيقيا لذلك التعدد المشار إليه من جهة، وإبرازا لخصوصية هذه الصلة -في هذا السياق- من جهة أخرى. وبالنظر إلى تعدد الأضواء التي ألقيت على الزاوية الأسمرية ونشأتها ضمن أعمال هذا المؤتمر العلمي الموقر، سأكتفي هنا بالإشارة إلى مجمل الظروف التي اكتنفت نشأة المدرسة

التاجورية المعاصرة لها (أواسط القرن 10هـ/16م) وتطور صلتها الملحوظة -فيما بعد- بالزاوية الأسمرية.

لقد شهد القرن (9هـ/15م) حركة مدّ وجزر بين عالمي الإسلام والمسيحية في حوض البحر الأبيض المتوسط، وتركّزت تلك التحوّلات العالمية العميقة -خلال ذلك القرن- في القارة الأوربية نفسها، وتمثلت أبرز تجلياتها في فتح القسطنطينية سنة (857هـ/ 1453م) في فضاء إسلامي جديد، وسقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس سنة (897هـ/1492م) وذهاب ذلك الفضاء الإسلامي القديم الذي لا يزال الأسف عليه قائما في الوجدان التاريخي حتى اليوم. ولم يكتف الأسبان والبرتغاليون بما يعرف في المنظور الغربي بحركة الاسترداد وإنما اشرأبت أعناقهم إلى ملاحقة المسلمين في السواحل الغربية للقارة الأفريقية وبلاد المغرب العربي، واتخذوا لهم عددا من (المستعمرات الساحلية) التي امتدّت على الشاطئ الجنوبي لحوض المتوسط من مدينتي سبتة ومليلة سنة (...) إلى مدينة طرابلس سنة (916هـ/1510م).

ولم يكتف العثمانيون كذلك بتقدمهم في شرقيّ أوربا خلال ذلك القرن، إذ سرعان ما تحوّل الصراع بين هاتين القوتين العظميين في القرن التالي (10هـ/16م) إلى شمال القارة الأفريقية أيضا. وخلاصة القول في هذا السياق الموجز المحدود أنّ بلدة (تاجورة، تاجوراء) الريفية الساحلية الواقعة إلى الشرق من مدينة طرابلس بنحو (20 كلم) كانت موطئ أول قدم للوجود العثماني في إيالة طرابلس الغرب (ليبيا اليوم) خلال تلك التحوّلات العميقة في حوض البحر الأبيض المتوسط؛ إذ اتخذت منطلقا لوجستيا لفتح المدينة المحتلة. كما تنبغي الإشارة في هذا السياق أيضا إلى ما سبق تلك التحوّلات، وتخللها، وتلاها من حركة جموع الهجرة الأندلسية المثيرة إلى بلاد المغرب والمشرق والدولة العثمانية، وقد كان لبلدة تاجوراء نفسها نصيبها المحدود -على تواضعه- من هذه الهجرة، لعل أبرز مظاهره التي لا تزال بادية للعيان إلى اليوم تتمثل في: (زاوية الحطاب) التي أسّستها إحدى الأسر الأندلسية، وضريح (سيدي الأندلسي) المقبور على شاطئ البلدة.

وقد كان ذلك المسجد الجامع الشهير الذي أسّسه (المبعوث، الوالي) العثماني مراد آغا بتاجوراء، في ذلك الظرف الحربي الخاص المتوتر، أول أثر معماري عثماني بإيالة طرابلس الغرب؛ وهو ما يفسّر بالضرورة الشكل المعماري الوظيفي المتميّز لهذا الأثر، إذ يبدو جليّا -كما لاحظ بعض الدارسين من المؤرخين والمعماريين- أنه كان

مسجدا للصلاة، وقلعة محصّنة للجهاد، ويضمّ الجامع الفسيح عددا من الأروقة القائمة على (8×6) صفوف من الأعمدة الرخامية التي جلبت من مدينة لبدة الأثرية، مع محيط الجدران السميكة، وتبلغ أبعاده ومساحته نحو (38.50×33.00 = 1270.50 مترا مربعا). وقد ألحقت به مدرسة مجاورة منذ ذلك العهد، مع ما يلزمها من الغرف (الخلاوي) لسكنى الطلاب، وقدّر لهذه المؤسسة الدينية العلمية أن تغدو المركز العلمي الأول لبلدة تاجوراء، وأن تجعل منها إحدى تلك البيئات الثقافية المتقاربة المتكاملة في إيالة طرابلس خلال العهد العثماني الأول وما يليه.

ويبدو من خلال بعض الإشارات النصّية في مخطوطة فتح العليم نفسها، وفي مخطوطة تذييل المعيار، أنّ هذه المدرسة كانت آنذاك، أي بعد مرور أكثر من قرن على تأسيسها، لا تزال تنسب إلى اسم مؤسسها (مدرسة مراد آغا بتاجوراء) حينا، وإلى البلدة نفسها (مدرسة تاجوراء) حينا آخر، في حين أشار إليها ابن غلبون باسم (المدرسة التاجورية) في مستهل العهد القرمانلي. وقد كان الشيخ أحمد بن عبد الرحمن النعاس التاجوري (ت 1076هـ/1665-1666م) في مقدمة العاملين بالتدريس في هذه البلدة، إذ كانت «دارهم دار علم وبركة؛ هم بركة تاجوراء من القديم ... وخلفه في التدريس ببلدة تاجوراء ابنه الصالح سيدي عبد الحفيظ». ولئن كان هذان المدرسان نموذجين معروفين من أبناء البلدة نفسها على سبيل المثال؛ فإنّ الشيخ أبوراوي بن محمد بن عمران بن عبد السلام الأسمر (ت 1088هـ/1678م) يعدّ أبرز نموذج لبداية التواصل، والتكامل الثقافي بين الأسرة الأسمرية والمدرسة التاجورية، إذ كان في طليعة الوافدين من أبناء تلك الأسرة الصوفية الطرقية على بلدة تاجوراء.

ومن الجلي هنا أيضا أنّ شخصية الشيخ أبي راوي الذي غلبت عليه السمات الصوفية الطرقية، قد استأثرت بجلّ اهتمام تلميذه عبد السلام التاجوري مؤرخ الأسرة وطريقتها الصوفية، بعد الشخصية الرئيسة الأولى (عبد السلام الأسمر) التي بنى عليها كتابه فتح العليم. فقد جعل المؤلف الفصل الأول من الباب الثالث: «في ذكر ما بيننا وبينه من المشايخ ليتصل سندنا به -إن شاء الله- دنيا وأخرى، فأولهم ذكرا وآخرهم عصرا [كذا] هو شيخنا وبركتنا وقرّة أعيننا الشيخ العالم الصالح المربي المجذوب السالك العارف بالله المعرّف به صاحب المحاسن الحميدة والفضائل العديدة ... سيدي أبوراوي بن سيدي محمد عرف الدوفاني ... الخ». وقد شغلت ترجمته عشرات الصفحات من المخطوطة، في حين اقتصرت ترجمة المؤلف (لوالده عثمان) على بضع

صفحات في الفصل الثاني من هذا الباب.

ومع غلبة هذا المسلك الصوفي الطرقي على أبي راوي، فإنّ بعض الإفادات الواردة في مخطوطة تلميذه تؤكد -أيضا- من جانب آخر عنايته الملحوظة بدعم الحركة التعليمية آنذاك: «فإنه منذ عقل وهو ملازم العلم والتعليم إلى أن مات ﷺ ونفعنا به آمين. وقد آجر -على قلة ما في يده- على الإقراء جملة من الطلبة يقرئون الناس ويعلمونهم، وكان لا يحبّ إلا من كان مشتغلا بالعلم، وكل من عرفه اشتغل بالعلم والتعلم والنسخ ... ولم يمت حتى كثرت محبّة العلم في كثير من ذرية الشيخ وأتباعه ... الخ». ويبدو جليّا -فيما أرى- أنّ هذه المعطيات الكريمة هي التي تفسّر غالبا إطلاق اسمه (زاوية أبوراوي) الشائع حتى اليوم أيضا على مدرسة مراد آغا، أو مدرسة تاجوراء؛ المؤسسة العلمية العثمانية الأولى في إيالة طرابلس. ويبدو جليّا أنّ أهالي البلدة أو الوسط التعليمي الثقافي بها قد خصّه بهذا التقدير تكريما لجهده المذكور أعلاه. على أنّ هذا التحوّل الاسمي ليس حالة مفردة في تاريخنا الثقافي؛ إذ نجد حالات مماثلة تحوّلت فيها بعض المؤسسات التعليمية الأخرى في العهود اللاحقة بمدينة طرابلس، من أسماء مؤسسيها إلى أسماء بعض معلميها.

هذا عن تحوّل نسبتها في الذاكرة الاجتماعية للبلدة؛ من مؤسّسها الأول (مراد آغا) إلى المعلم الأخير أعلاه (أبوراوي). أمّا تطور المصطلح الثقافي من المدرسة إلى الزاوية فله تفسير آخر فيما أرى؛ إذ يبدو لي أنّ مصطلح (مدرسة) الذي كان مستعملا بنفس اللفظ في التركية العثمانية، وشائع الاستعمال في أدبيات التعليم العثماني، كان آنذاك ألصق بتلك المؤسسات التعليمية (الرسمية) التي تؤسّسها سلطات الإيالة؛ ومن أبرزها ما بنته السلطنة كالجامع الأعظم والمدرسة بتاجوراء، و(مدرسة عثمان باشا) في العهد العثماني الأول، و(مدرسة أحمد باشا) و(مدرسة مصطفى خوجه) في العهد القرمانلي اللاحق، في حين عرفت المؤسّسات التعليمية الأهلية المتعددة بأطراف الإيالة غالبا باسم (الزاوية) ويبدو أنّ غلبة هذا المصطلح على مدرسة تاجوراء، وعلى سائر المؤسسات التعليمية في الإيالة، تعود غالبا إلى صلتها الملحوظة بالحركات الصوفية (الطرقية) وروافدها الأهلية، وتقاليدها السائدة آنذاك؛ وهي أدنى -كما ترى- إلى فضاء الزاوية منها إلى أفق المدرسة.

وما إن استكمل الفقيه الصوفي المؤرخ عبد السلام بن عثمان التاجوري (تلميذ الشيخ أبي راوي، وقريبه) مراحل تحصيله العلمي بطرابلس وغيرها في رحلته إلى الحج،

حتى غدا أبرز أساتذتها في أواخر العهد العثماني الأول ومطلع العهد القرمانلي إلى وفاته سنة (1139هـ/1727م). وفضلا على اضطلاعه بالتأريخ للأسرة الأسمرية وطريقتها الصوفية في مخطوطة فتح العليم، فإنّه بشخصه يمثل امتدادا واسعا للتواصل والتواشج الاجتماعي بين بلدتي زليطن وتاجوراء؛ إذ شكلت ذريته فرعا من الأسرة باسم (أولاد العالم) لا يزال متصلا بين تاجوراء ومسلاتة حتى اليوم، وهو ما أوضحته بمزيد من التفاصيل في الدراسة السابقة.

عبد السلام التاجوري (الحفيد: الفقيه، الصوفي، المؤرخ)

تقدّمت في الدراسة السابقة التفاصيل الموثقة العديدة عن ع. ع. التاجوري من خلال ما دوّنه عن نشأته ومراحل تحصيله وتراجم شيوخه، وقد بدا لي أخيرا من خلال معايشة نصوصه أنه حريّ بهذا التوصيف الثقافي الثلاثي الذي يدلّ على انتمائه وتكوينه، إذ غلبت عليه هذه الفروع الثلاثة من ألوان المعرفة العربية الإسلامية السائدة آنذاك في إطار بيئته وظروف عصره. ولئن كان من العسير موضوعيا ترجيح أسبقية أحد هذه الفروع في تحصيله، فإنني لم أرد بهذا النسق التراتبي المذكور أعلاه سوى الإشارة التقريبية إلى حجم آثاره المعروفة حتى اليوم. إذ يبدو أنّ كتابه (تذييل المعيار) في فقه الفتاوى أو النوازل التي توصف بالفقه المطبّق -مع ما ينسب إليه أيضا من أثر فقهي آخر لم يصلنا بعد، وهو اختصار لأحد شروح خليل- يرجّح كميّا على الأقل غلبة هذا الأثر على كتابيه الآخرين، وهما (فتح العليم) في المناقب، و(الإشارات) في ذكر بعض المزارات، اللذان يجمعان معا -على التوالي بشكل ممتزج- بين التصوف الطرقي السائد آنذاك، والتاريخ الثقافي غالبا من باب التراجم المحدودة لديه.

وقد عنيت في الدراسة السابقة -على وجه الخصوص- ببيان الصلة الجليّة بين كتابي الإشارات وفتح العليم، ومع أنّ البيانات التوثيقية المدوّنة بقلم المؤلف في نهايتي الكتابين تفيدان في الظاهر أنه فرغ من الإشارات سنة (1094هـ) قبل فراغه من فتح العليم سنة (1100هـ) فقد استوقفتني بعض الملاحظات، وتبيّن لي من خلال استقراء بعض النصوص، أنه شرع في كتابه (المطوّل) فتح العليم قبل الإشارات، ثم بدا له أن يخرج أولا هذا الكتاب الصغير (الموجز) مشيرا مرارا إلى عمله الآخر (دون اسم) ومقتبسا منه نصوصا متعددة في عدة مواضع. وقد أشرت هناك أيضا إلى أنّ الصلة بين الكتابين تزداد تداخلا -على وجه الخصوص- في تلك المواضع ذات الموضوع

المـشترك بيـنهما، وهو الشخصية الصوفية الرئيسية الشيخ عبد السلام الأسمر ومن اتصل بـه مـن الأبـناء والأتباع ... إلخ (شرقي طرابلس) في حين تغيب هذه الصلة بين الكتابين في القـسم المخـصّص (للجهـات الغـربية) مـن كـتاب الإشارات ... وقد رأيت اليوم من المناسب أيضا أن أضيف هنا، على ما تقدّم بالأمس هناك، الزيادة الإحصائية التالية التي يـبدو لـي أنهـا لـن تخلو على أيّة حال من بعض ما يفيض به الاستقراء، والإحصاء من الدلالات.

جدول إحصائي تراتبي وفق السياق، لذكر المزارات في كتاب الإشارات

ر.م	الجهة	العدد	الصفحات
1	ذكر من بداخل المدينة	14	16-14
2	ذكر من بإزائها وفي مقبرتها: (سيدي مندر وسيدي الشعاب)	9	22-17
3	ذكر من بساحل المدينة	7	24-22
4	ذكر من بتاجوراء	24	43-24
5	ذكر من بالجفارة والغابة	21	51-43
6	ذكرمن بساحل آل حامد من عين لبدة إلى عين كعام	27	61-51
7	ذكر من بزليتن والفواتير ﷺ	79	98-61
8	ذكر من بمصراتة	27	105-98
9	ذكر من بمسلاتة	34	110-106
10	ذكر من بجنزور والغار ولماية	23	114-110
11	ذكر من بالزاوية الغربية وعملها	124	131-114
	المجموع	389	

وهكذا يبدو أعلاه من خلال هذه النظرة الإحصائية البسيطة العجلى، أنّ زليتن قد استأثرت بالنصيب الأوفى من (عدد الصفحات) بالنظر إلى غيرها، وهذا ممّا يؤكد أيضا صلة هذا القسم من كتاب الإشارات بمخطوطة فتح العليم، ومناسبة الاستطراد والاقتباس مـنها والإشـارة إليها في هذه المواضع، في حين استأثرت الزاوية، وما يليها من الجهات الغـربية بالنـصيب الأوفى من (عدد المزارت)، ولعل في ذلك مصداقا أيضا -من منظور النصّ- لتلك العبارة التي استهلّ بها هذا القسم «وقد اشتهر عن الشيخ زرّوق ﷺ أنّه قال فيها وفي الفواتير: إنهما ينبتان الأولياء، كما تنبت الأرض الطيبة الزعفران!»

كما سلفت في الدراسة السابقة أيضا الإشارة إلى وجود بعض النقول في مخطوطة (فتح العليم) من كتاب (المعيار) الشهير للعالم الفقيه أحمد بن يحيى الونشريسي (ت 914هـ/1508م) واحتمال كونها منطلقا أوليّا لعمله الآخر المرتبط به (تذييل المعيار). ولئن كان في هذه النقول المبكرة ما يدلّ على وقوفه على كتاب المعيار وأخذه عنه، وإدراجه في تكوينه الذهني بين قراءاته ومصادره الفقهية على الأقل، منذ تلك البدايات الأولى في مخطوطة فتح العليم، فقد استوقفتني أخيرا إحدى القرائن الدالة في كتابه (تذييل المعيار) نفسه الذي نشر أخيرا كما تقدم أعلاه؛ وهي إشارة المؤلف في أحد المواضع إلى الأديب الراحل عبد المالك التجموعتي (المتوفى سنة 1118هـ تذييل المعيار 348/1) وهذه الإفادة جليّة الدلالة على اشتغال المؤلف بكتابه التذييل إلى ما بعد تاريخ الوفاة المذكور، في حين تقدّمت إشارته إلى اجتماعه به بطرابلس في خاتمة فتح العليم[3] مع ما يمكن تقميشه أيضا من الإشارات التاريخية المماثلة في هذا العمل الفقهي الموسّع نسبيا بين آثاره.

وهكذا نخلص من هذه المقاربة الموجزة الأوليّة لتطور التأليف في ذهنية المؤلف (الفقيه، الصوفي، المؤرخ) إلى التماس هذا السياق التراتبي بين آثاره؛ إذ يمكن القول إجمالا:

- إنه شرع في فتح العليم (المطوّل) أولا، ولكنه تمهّل في إتمامه نحو ست سنوات وقد تزيد عليها.
- في حين أسرع بإنجاز الإشارات (الموجزة) التي أتمّ «تقييدها ثم تبييضها في نحو ستة أيام» كما جاء في عبارة الختام، وهذه السرعة في إخراجه أقوى دليل على أن كثيراً من مادته مستخلصة من عمله السابق.
- ثم واصل عنايته بتذييل المعيار الذي تدلّ القرينة المشار إليها أعلاه على أنّه كان آخر آثاره التي كتب لها البقاء حتى اليوم.

ازدواجية الخطاب في آثاره

تعدّ مخطوطة (فتح العليم في مناقب سيدي عبد السلام بن سليم) من أبرز مؤلفات المناقب في المكتبة الليبية، وتشتمل على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة:

المقدمة: في بعض التعريف به وبقبيلته ونحو ذلك.

3- حولية المجمع، العدد الرابع، 2006، ص 259.

الباب الأول: في ذكر شيء من مناقبه، وفيه رؤياه.
الباب الثاني: في تبرئته من كثير ممّا تلبّس به بعض المنتسبين إليه، وفيه وصيته وبعض أحزابه وما يتعلق بذلك.
الباب الثالث: في ذكر بعض من اشتهر بالصلاح من أولاده وأتباعه، وفيه ثلاثة فصول:
الفصل الأول: في ذكر ما بيننا وبينه من المشيخة.
الفصل الثاني: فيما بيننا وبينه من النسب.
الفصل الثالث: فيمن اشتهر بالصلاح من أولاده وأتباعه غير من ذكر.
الخاتمة: في ذكر مشايخنا الفقهاء ومن أخذنا عنه أو اجتمعنا به أو عاصرناه وتأنسنا بوجوده على البعد.

وقد عنيت في الدراسة السابقة أيضا بالتأكيد على ازدواجية الخطاب الظاهرة جدّا في هذه المخطوطة؛ بين الأبواب والخاتمة، وكأنّ هذه الثنائية في بناء النصّ انعكاس جليّ لتكوينه الثقافي المزدوج، الجامع بين الانتساب للعلم على اصطلاح بيئته وعصره، والانتماء إلى التصوّف الطرقي الشائع -آنذاك- الذي يسفّ أحيانا إلى وهدة الخرافة. ولئن كان القسم الأول (المقدمة والأبواب) في الصميم من أدب المناقب، بما يعتريه من هبوط وضعف، فإنّ نصّ (الخاتمة) الموجز -شكلا- يعدّ سيرة علمية محرّرة للمؤلف، من خلال مراحل نشأته وتحصيله العلمي وتراجم شيوخه. على أنّ هذه الازدواجية الذهنية تشمل بقية آثاره أيضا، فكتاب الإشارات لصيق جدّا بالقسم المناقبي الغالب من فتح العليم كما تقدّم، وهما يمثلان الجانب الصوفيّ الطرقي الشعبي الشائع آنذاك في وسط اجتماعي يغلب عليه العوام، وهو ما يدفعه غالبا إلى تبسيط الصياغة وهبوط العبارة. أمّا ورقات الخاتمة القليلة وتذييل المعيار فيمثلان الجانب العلمي الفقهي البحثي بمقياس تلك الفترة.

خلاصة التراجم في الباب الثالث من مخطوطة فتح العليم

ولئن كانت الدراسة المطوّلة السابقة احتفاء ظاهرا بما قدّمته تلك الخاتمة على إيجازها لتاريخنا الثقافي في العهد العثماني الأول، فإنّ هدف هذه الخلاصة المزيدة اللاحقة سينصبّ أخيرا -كما تقدّم- على مقاربة الشقّ المناقبي في مخطوطة فتح العليم الذي يمكن القول إجمالا إنّه يجمع بين الجوانب التالية:

- عدّة لوحات من التاريخ الاجتماعي الذي يقترب منه التصوّف الطرقي الشائع آنذاك

في بعده الشعبيّ الموسّع.

- بعض الإشارات إلى وقائع التاريخ السياسي، والإجراءات الإدارية المعتادة آنذاك.
- العديد من الإفادات عن التاريخ الثقافي من هذا المنظور المناقبي.
- وفوق ذلك كله ينبغي التنويه أخيرا بالبعد اللغوي في هذا النصّ، وغيره من نصوص المناقب المماثلة، وأهميتها الظاهرة لدراسة اللهجة -على وجه الخصوص- لغلبة الخطاب العاميّ عليها، مراعاة للفضاء الشعبي الموسّع.

غير أنني آثرت هنا أيضا تجاوز ما جاء في المقدمة والبابين الأول والثاني من تلك المواد العديدة التي قد يتعذر جمعها، وتصنيفها، وعرضها بإحكام ودقة، قبل نشر المخطوطة، مكتفيا بالإشارات الموجزة التالية إلى فصول الباب الثالث التي هي أدنى إلى أدب التراجم، والتاريخ الثقافي(من منظور خطاب المناقب.

الباب الثالث: في ذكر بعض الصالحين ممّن انتسب للشيخ وانتمى إليه، فظهرت بركة اتباعه عليه.

المشيخة

الفصل الأول: في ذكر ما بيننا وبينه من المشايخ ليتصل سندنا به -إن شاء الله- دنيا و أخرى.

« أوّلهم ذكرا وآخرهم عصرا، هو شيخنا وبركتنا وقرّة أعيننا، الشيخ العالم الصالح، المربّي المجذوب السالك، العارف بالله المعرّف به، صاحب المحاسن الحميدة (المجيدة) والفضائل العديدة، من جمع بين الحقيقة والشريعة، وسلّم وسلم بحول الله ظاهرا وباطنا من كل ذميمة وشنيعة ... سيّدنا ومولانا وحصننا حيّا وميّتا [كذا] سيدي أبي راوي ابن سيدي محمد عرف الدوفاني ابن سيدي عمران ابن الشيخ سيدي عبد السلام» (1042-1043هـ/؟-1088هـ).

وقد طالت الصفحات المخصصة لشيخه أبي راوي وتعددت موادها التي غلب عليها الخطاب المناقبي وما إليه مثل كراماته، وحكاياته، ووصفاته الطبية من العلاج والرقيات ونحوها. ومنها نقول عديدة من تقييداته وبعض رسائله؛ وهذا موجب الطول الظاهر في هذه الترجمة التي غلب عليها، كترجمة الأسمر، ذلك الخطاب المذكور الذي لا يمكن القبول بكل جزئياته، خلافا لما ورد في تراجم شيوخه -وهو منهم- في

الخاتمة بلهجة مخالفة مغايرة[4].

لوحة قلمية [1]

« فبينما نحن ذات ليلة في منزل الشيخ -رحمه الله- عند سيدي عبد الحفيظ النعاس -حفظه الله- والشيخ في وسط حلقة الذكر، يزهر بذكر الله كالأسد، وأنا على سدّة هناك أنسخ له في كتاب لا أدري الآن ما هو، ومعي سيدي محمد عرّوج جالسا على عادته؛ إذ هو قليل الدخول لحلقة الذكر لعذر به، إذ خرج لنا الشيخ من وسط الحلقة، وتوكأ على سيدي محمد بظهره، ونظر إليه، وقال ما معناه القريب من لفظه: لماذا عرّوجة تؤخر صلاة الظهر حتى يدخل عليها وقت العصر! »

ثانيهم الشيخ (الصالح) العارف شيخ وقته وقدوة زمانه سيدي محمد بن سيدي عمر عرف (بابن) جحا ﷺ « كان -رحمه الله- سيّدا فاضلا عارفا بالله محبّا له ولرسوله متبعا للكتاب والسنة غاية الاتباع [وأورد بعض مكاشفاته، وهي أيضا ذات خطاب مناقبي ظاهر] إلى أن مات سنة 1071هـ ودفن بعقاره في لقاطة من ساحل الأحامد من عمل طرابس الغرب، وروضته هناك تزار ويتبرك بها ».

ثالثهم، أي ما بيننا وبينه من المشايخ، الشيخ الصالح سيدي عمر بن جحا « والد سيدي محمد -رحمهما الله- وهو أخذ عن الشيخ سيدي عبد السلام، سقاه بنظرة واحدة [كذا] فوصله بها، وذلك أنّ الشيخ جاء لمدينة جده [؟ لبدة] يريد أن يرفع منها أعمدة (الرخام) للزاوية أيّام تأسيسه إياها، وكان سيدي عمر فيها يرعى معيزا فيما أظنّ... [إلى آخر الحكايات والإفادات وهي ذات خطاب مناقبي ظاهر] ... ولا أعرف تاريخ وفاته رحم الله الجميع ».

النسب

الفصل الثاني: في ذكر من بيننا وبينه في النسب، ولهم علينا أيضا مشيخة؛ فلنا به من ناحيتهم اتصال من وجهين.

فأوّلهم والدنا الشيخ الكبير ذو الذكر الشهير سيدي عثمان بن عزّ الدين « حفظه الله ورزقنا محبّته ورضاه وظهرت له الخوارق الكثيرة، وله اتصال كبير بالشيخ سيدي عبد السلام، لا يكاد يفعل شيئا إلا برؤيته، ويقول له مقطعات كثيرة ولنذكر شيئا من ذلك

4- انظر ترجمته هناك في حولية المجمع، العدد الرابع، 2006، ص 244-245.

فنقول ... وقد اعتراه في آخر عمره حال فصار يستعمل في حضرته الزكرة فايا كان [كذا: فإيّاك أن] تقتدي به في ذلك، فإنّ صاحب الحال إنما نطالب شرعا بالتسليم له، لا بالاقتداء به، وقد سمعت أنّه دعا بالشرّ على كلّ من يستعملها في غيبته، فإن اعتقدته [فخف] من دعائه، وإلا فكيف تقتدي بمن لا تعتقد، وهذا على سبيل التنزل، والا فمن آمن بالله ورسوله وصدّق بما جاء عنهما علم أنّ النجاة دنيا وأخرى في اتباع السنة، ولم يلتفت لشيء من هذا وبالله التوفيق».

هل يؤخذ من هذا النصّ معارضته لأبيه كما ورد في رواية الأسرة[5]؟. لم يذكر مولده؟ ويبدو من السياق أنّه كان على قيد الحياة عند الفراغ من فتح العليم، سنة 1100هـ.

الثاني ممّن بيننا وبين الشيخ في النسب سيدي عزّ الدين «وكان ديّنا صالحا مشتغلا بنفسه، تاركا للأطماع وللدعاوي. وله مقطعات حسنة في الصلاة على رسول الله ﷺ، وغيرها، وكان مجاب الدعوة. توفي بعد الستين وألف، ودفن بإزاء عقاره في الشعابنية بزليتن وقبره ظاهر في روضة بسيدي عرفة يزار».

الثالث ممّن بيننا وبينه في النسب الشيخ الكبير الشهير سيدي عبد الوهّاب بن سيدي عبد السلام «كان -رحمه الله- ذا سمت حسن وسيرة طيّبة. حدّثني الشيخ الصالح سيدي ضيف الله الفيتوري -وكان من أصحابه الإجلاء- أنّ سيدي عبد الوهاب كان زاهدا ورعا لا يطمع في أحد أصلا، لا يتوجّه لسفر إلا بعوينه ... وهو ممن وصله الله بريق الشيخ والده لأنّه تفل في فمه، فظهرت عليه بركة ذلك صلاحا وخرق عادة، فكانت له الخوارق الكثيرة حتى وهو صغير ... وكانت أمّه أمة سوداء اسمها عافية، سمعت أنها هي التي كانت بين يدي الشيخ في جلّ خدمته. فكان -أعني سيدي عبد الوهاب- أسمر، فعدى عليه بعض الناس وجعله في سفينة ليبيعه، وقال لهم إنّه عبدي، فلم تسر السفينة ووقفت، فأنزلوه منها فسارت، فأعادوه لها فوقفت، فأنزلوه فسارت، فعلوا ذلك ثلاث مرّات حتى علموا أنّ وقوفها بسببه؛ فأنزلوه وتاب الذي عدى عليه وعظمه من ذلك اليوم واعتقده الناس».

لوحة قلمية [2]

«ومن جملة ما وقع لسيدي عبد الوهاب مع الأتراك، أنّهم غضبوا على بعض

5- انظر: حولية المجمع، ص 209-211.

أولاد الشيخ غضبا شديدا، فتوجّه لهم سيدي عبد الوهاب فالتقى بكاتب السرّ إذ ذاك في فم الحصار [القلعة] وكلمه، فانتهره الكاتب وأظهر له الغضب وعدم قبول الشفاعة.

- فقال له سيدي عبد الوهّاب محذرا: ما بك حاجة في الاعتراض يا فلان.
- فقال له الكاتب مستهزئا: انفخني!
- فقال له: على الله أنّك تنتفخ!

فانتفخ بقرب ذلك انتفاخا فاحشا حتى بلغ خبره الأمير، فجيء به إليه وشاهد نفخه، ثم بعث لسيدي عبد الوهاب وطلب به حتى أرضاه عليه، فوضع عليه عصا فانفتح من أعلا وأسفل، وجعل الريح يجري يخرج منه بصوت قويّ، حتى ضحك جميع من بالمجلس! ثم تابوا وقضوا حاجة سيدي عبد الوهاب، وعظموه في أعينهم فكانوا لا يردّون له شفاعة».

بعض أولاده

الفصل الثالث: في ذكر بعض أتباعه وذريته غير من ذكرنا.

«أمّا أولاد صلب الشيخ الذين مات عنهم فهم خمسة عشر، كلهم بلغوا درجة الولاية على (ما) سمعت (من) كثير من أهل البصائر، ولكنّ أحوالهم مختلفة بين مجذوب وسالك، وأكثرهم شهرة بالصلاح (جدّنا) سيدي عبد الوهّاب وسيدي أبو فارس، وهما أصغر أولاد سيدي عبد السلام».

«وأمّا سيدي عمران فهو الذي كان يلازم الشيخ في حياته، وقد كبّره [كذا] على أولاده في حياته؛ فبلغنا أنّه وضع أيديهم فوق أيدي بعضهم وجعل يد عمران فوق الجميع ... مات سيدي عمران -فيما أظنّ- سنة ست وتسعين وتسعمائة، ودفن بالمقبرة التي قرب الزاوية، وهي مشهورة به إلى الآن، والله أعلم».

لوحة قلمية [3]

«فقتله يحيى الشقيّ في سوق بلد أولاد غيث، تخوّفا منه لمّا أن علا صيته وأطاعته الناس كلهم، قيل ليحيى: إنه لا يتمّ لك الأمر حتى تقتله، فقتله ونهب الزاوية نهبا شنيعا، فضاع منها من الكتب شيء كثير، ومن الأثاث ما لا يعد، لأنّ سيدي عمران كان حبّس نحوا من خمسمائة مجلدا على الزاوية، وفيها ضاعت مناقب الشيخ ووصاياه وإخباراته بما (سيقع) وكثير من كلامه. وضاع من الأموال شيء كثير، لأنّ الزاوية كانت في غاية القوّة. وما يدلك على ذلك ما بلغنا أنّه لمّا انتهى مراد آغه -على ما تقدّم- في

ألف فارس، ومكث سبعة أيام، كان سيدي عمران يخرج لفطرهم خمسمائة طبق مملوء عجين تمر، وخمسمائة قدح مملوءة حليبا، عدا أواني الأطعمة الأخرى، كلّ رجلين بطبق وقدح، فإذا كان هذا في الأطباق والأقداح فما بالك بغيره».

ومن المشتهرين بالصلاح من أولاد صلب الشيخ سيدي أحمد بن عروس، ويقال له البكر «مات في حياة الشيخ، وهو الذي اخترع الذكر المعروف الذي تقوله طايفة الزيارة». ومنهم سيدي أبو فارس «وهو المقبور بساحل الأحامد بقرب من حسنوس».

ومنهم سيدي عبد الحميد الصغير «المقبور عند جدّي عمران في الفواتير. مات في زمن الشيخ فأمر بدفنه هناك». وفيها إشارات إلى بعض مواقف السلطات من الأداء وتزميم النخل.

ومنهم سيدي أبو الحسن بن حمودة بن سيدي عبد السلام «وليس لي معه معرفة؟ إلا أنّه كان حيّا بعد وجودي، ولا أستحضر تاريخ موته، ولكنه فيما حوى [كذا] إلى الستين بعد الألف -فيما أظنّ- وقبره بإزاء الروضة التي بها والد سيدي حمودة وعمّاه يزار عند عقارهم».

ومنهم سيدي سليمان بن سيدي عبد الوهّاب بن سيدي عبد السلام «كان -رحمه الله- ذا محبّة للفقراء المنتسبين إلى الله. مات -فيما أظنّ- سنة اثنين وثمانين وألف. ولمّا حملوه طار بحملته فلم يملكوا أنفسهم حتى وصل موضع قبره!!». «وانهدم قبره بعد نحو خمس سنين فأرادوا إصلاحه فوجدوه كما دفن لم يتغير منه شيء، أخبرني بهذا جماعة منهم الوالد وأخونا سيدي عبد السلام الكبير وغيرهما».

وتستوقفنا هنا إشارته إلى أخيه (عبد السلام الكبير) فهل لأخيه عقب يذكر، أم توفي قبل ذلك؟ وهذه إضافة إلى (شجرة الأسرة).

ومنهم سيدي أبو عزّة «المقبور بزاويته التي أسّسها في بندار من ساحل الأحامد، وابنه سيدي حسين، ومعه جماعة من أقاربه في المقبرة التي غرب الزاوية المذكورة بالقرب منها». «حتى مات أكثرهم بالطاعون سنة سبع وثمانين وألف».

بعض أتباعه

«وأمّا أتباع الشيخ فهم كثيرون جدّا فلا يمكن حصرهم، ولكن نشير إلى بعض من اشتهر منهم تبرّكا».

منهم الشيخ الأكبر سيدي مفتاح الفيتوري العطوي «سمعت من سيدي الشيخ أبي راوي أنّه هو خليفة الشيخ سيدي عبد السلام. وهو مشهور بسوّاق الحجل؛ لأنّه كان يخرج للبادية ويسوق ما يجيء أمامه من الحجل والوحش. وكرامات سيدي مفتاح هذا كثيرة جدّا، وله مع جدّنا سيدي عبد الوهاب صحبة ومحبّة ووقايع يطول بنا تتبعها فلنقتصر على هذا القدر. ولا أعرف تاريخ موته، وقبره بالفواتير ظاهر يزار».

ومنهم ابنه سيدي محمد عرف الأصغر «كان رجلا مجذوبا لا يخاف أمير ولا غيره. مات -رحمه الله- بعد الثمانين وألف، ودفن قرب أبيه، وقد اجتمعت به ولم تقع لي معه خلطة». «وبقرب ضريح سيدي مفتاح أيضا ضريح ابنته ضعنا، وهي امرأة مجذوبة لها خوارق كثيرة».

ومنهم الشيخ المجذوب الأمّي سيدي منصور كحيل «كان -رحمه الله- آية من آيات الله في المكاشفة ... وكان مع ذلك آية من آيات الله في الاتّباع لا يخالف الشرع في شيء. تربّى صغيرا في جوار الشيخ أبي فارس ابن سيدي عبد السلام. قال ثم ناداني يوما وقال لي أنت منّا وتتزوج منّا وقد غرسك الشيخ، فتزوّج سيدي منصور من بنات الشيخ وصار من أتباعه، ثم سافر لتونس واجتمع بسيدي عيسى الدنيدني في جربة، وسقاه كما تقدّم، فراجعه في الورقة السادسة والعشرين من هذا التقييد [! إحالة توثيقية لطيفة من المؤلف] اجتمعت به وأنا صغير لا نبات بعارضي ... مات -رحمه الله- سنة اثنين وثمانين وألف، ودفن بمقبرة الفواتير أولاد سليمان من الناحية الغربية».

ومنهم سيدي خليفة الشويشين خديم الشيخ ورفيقه «وهو الذي أخبر بكثير من كرامات الشيخ، وله أحوال حسنة. لا أعرف تاريخ موته، وقبره في روضة الشيخ يكون عن يسارك إن كنت داخلا». «وكذلك ابنته أمّي سالمة، وقبرها في المقبرة الصغيرة التي قرب الزاوية من ناحية الغرب على جانبي الطريق، ولها أيضا أحوال حسنة، وقد قدّمنا ما حكته عنها الفقيرة الصالحة يزّا، ممّا يدلّ على شدّة ورعها».

«والفقيرة يزّا هذه من الصالحات العابدات، كان سيدي منصور كحيل يصف لنا موضعها ... ماتت -رحمها الله- في الطاعون سنة ثمان وثمانين وألف، وقبرت بالمقبرة التي بالسبخة قرب ديار سيدي شعبان بين قرية الغار وتاجوراء، مع ابنها أخينا في الله الرجل الصالح الفقير صغير، وقد مات قبلها بأيّام قليلة رحم الله الجميع».

ومنهم سيدي ضيف الله الفيتوري «رفيق جدّنا سيدي عبد الوهّاب، وهو الذي ذكر

كـثيرا مـن كراماته وأحواله. وكان سيدي ضيف الله من أكابر صالحي الفواتير، ويقال إنه مـن السبعة وله مكاشفات. مات بالطاعون سنة ست أو سبع وثمانين وألف وقد (علت) سنّه، وقبره بجنب عقاره قرب روضة سيدي علي أبو حلفاية بالفواتير الصقوع».

ومنهم سيدي ضو الفيتوري «كان من المستغرقين في حبّ الله، غاب عن الوجود فـلا يعـرف زوجـته ولا ذريـته! وإذا قام يصلي وحده يأمر من يعدّ له الركعات ... مات بعـد الـثمانين وقـد هرم دون أقرانه، حتى يظنّه الإنسان والد أخيه الذي هو أكبر منه لقوة أحواله».

ومـنهم أخـوه سـيدي خويطـر، وابـن سـيدي خويطـر سـيدي محمد بن خويطر «وكلاهمـا مـن الـصالحين، ولهمـا أحـوال حـسنة غـريبة، وهمـا مقبوران بمقبرة أولاد سـليمان في الفـواتير. مـات سـيدي محمـد في الطاعـون عام ثمان وثمانين وألف، وأمّا سيدي خويطر فلا أدري أمات قبل أخيه أو بعده».

ومنهم سيدي مطر السمالوسي «كانت له أحوال وظهرت له كرامات، وكان ورده كـلّ يـوم ألـف ركعـة، وسـبعين ألـف سبحة؟ وغرس بيده ألف نخلة. ولا أعرف تاريخ موته، وقبره في زاويته بتاورغا ظاهر يزار».

ومـنهم سـيدي علـي الغزال الفيتوري «رجل مجذوب يذكرون له كرامات. مات قبل خمس وسبعين وألف، ولم أجتمع به».

ومنهم سيدي علي الفيتوري «كان كثير الصيام والصمت واللين، وله أحوال حسنة غـريبة، وكـرامات كـثيرة، وهـو المقـبور أعلا لقاطة من عمل ساحل الأحامد. مات بعد الـثمانين، ولـه مـع سيدي محمد بن جحا صحبة ومخالطة، وأمّا الوالد فكان يحبّه محبّة مفرطة. مات -والله أعلم- قبل الثمانين وألف». كذا خبر موته مرتين؟

ومـنهم سـيدي عـبد الله الصداعي الفيتوري «أبقى الله بركته رجل مجذوب متبّع، وهـو في التقـشف وحبّ الخمول والتبرّي من الدعاوى على طريقة السلف الصالح، وله أحـوال حـسنة وكـرامات ومكاشـفات ... ثم توفي إلى عفو الله أوايل سنة سبع وتسعين وألف، وقبره بعقاره في الفواتير».

ومـنهم سـيدي الحـاج تمـيم الفيـتوري «كـان من المظنونين بأنّه من خيار سبعة الفواتير، وكانت له أحوال وخوارق».

ومنهم سيدي أبو تركية «نزيل تكيران ببلد الشيخ الزروق، وهو في سلوك طريق السلف في التقشف والتواضع مثل سيدي منصور وسيدي عبد الله الصداعي. وكان سيدي محمد بن ناصر الدرعي يحبّه ويعتقده، وقد جاء إلى محله في حجته الأخيرة سنة سبع وسبعين، طلعة ورجعة، وأكل من طعامه. وذكره شيخ شيوخنا سيدي عبد الله العياشي في رحلته، وذكر أنّه ممّن لو أقسم على الله لأبرّه». «ولمّا زمموا نخيل مسراتة وأرادوا تزميم نخيلات عنده أعدّهن الزمّام نهاهم فلم يمتثل كبيرهم ...». وهذا مثل من إفادات أخرى مشابهة عن هذه الإجراءات الضريبية ونحوها من شؤون السلطة والإدارة.

ومنهم سيدي أحمد أبو العيدان المسراتي «كان زاهدا متقشفا، حافظا لكتاب الله تعالى، عاملا به، قرأ في زاوية الشيخ، وله كرامات ومكاشفات وأحوال حسنة. كان حيّا قبل سبع وسبعين، زرناه مع الشيخ أبي راوي غير مرّة، وكانت بينهما محبّة واعتقاد. ولا أحقق تاريخ وفاته، ولا موضع قبره».

ومنهم صاحبنا وشيخنا سيدي علي الفرجاني «حفظه الله وهو من أصحاب شيخنا سيدي أبي راوي، بل هو المظنون بكونه خليفته. كان يحبّه محبّة مفرطة ويدعو له ولا يردّ له كلاما، وهو الآن حيّ -بحمد الله- في ازدياد وبركة»[6].

بعض من نفعه الله بريق الشيخ

«ومن جملة من نفعه الله بريق الشيخ سيدي عبد السلام، فناسب أن نتبرك بذكره مع أصحابه»: الشيخ الكبير سيدي عبد الرحمن بن الأشهر «وكان يقال الأعور؛ لأنّ أباه أعور حتى غيّر ذلك سيدي أحمد الشريف شيخ سيدي عبد الرحمن وجعل مكانه الأشهر، ونهى عن دعائه بالأعور فاستمر كذلك عند غالب الناس ... وهو الذي فتح الله به على أهل تاجوراء؛ إذ كانوا لا اعتقاد لهم في هذه الطائفة إلى أن أتاهم سيدي عبد الرحمن فاتبعوه وانتفعوا به وصار فيهم الاعتقاد، ثم جاء بعد ذلك الوالد، ثم سيدي أبو راوي، ففيهم الآن الإيمان والتصديق. مات -فيما أظنّ- بعد الخمسين وألف، وقبره بقرية سمومن من عمل بزليتن، وقبره هناك ظاهر يزار».

«وكان سيدي أحمد مروان [التاجوري] ببركة شيخه المذكور على حالة حسنة، وظهرت له بركات وكرامات أشرنا إليها في غير هذا الكتاب». ومن الجليّ أنّه يريد هنا

6- وانظر ترجمته الموجزة مع أخيه المبروك في حولية المجمع، ص 252.

(الإحالة) إلى كتابه الآخر الموجز (الإشارات، انظر ص 35-36).

وممّـن نفعه الله بريق الشيخ سيدي عبد السلام جدّنا، ابنه سيدي عبد الوهّاب، كما تقدّم.

ومـنهم الـشيخ سيدي يخلف بن سيدي شعبان أبو غرارة «أبوه سيدي شعبان كان صـديق الـشيخ ... فاجـتمع سيدي يخلف بالشيخ وهو في حالة سكر بحبّ الله، ففرح به وتفـل في فمـه، وقـال له مرحبا بطويل العمر ... فعمّر سيدي يخلف أكثر من العشرين بعد المائة، وظهرت له كرامات، وقبره في أعلا وادي تورغت ظاهر يزار».

من أصحاب الشيخ

ومن أصحاب الشيخ عبد السلام، سيدي سالم السملقي المقبور بالحشّان «كان إذا أراد زيارة الشيخ وانفصل من أهله بترهونة يخبر الشيخ بقدومه».

ومـن أصـحاب الـشيخ سـيدي عـبد الـسلام، سيدي عبد الحميد أبو طبل المقبور بـوادي بـني وليد «له كرامات كثيرة في زمن الشيخ وبعده، مشهور عند ذريته وأهل بلده. وهـذا آخـر مـا تيـسّر ذكـره تـبركا بأصـحاب الـشيخ، لأنّ استقصاءهم يتعذر حصرهم والحمد لله رب العالمين».

«الخاتمـة: -ونـسأل الله حـسن الخاتمـة- أذكـر فـيها مـن لاقـيت مـن العلمـاء والصلحاء ... إلخ».

عنـيت بهـذه الخاتمـة باستفاضـة، ونـشرت نصوص التراجم، في الدراسة المطوّلة السابقة.

وهـذا مـا تيـسّر اسـتخراجه من المادة المناقبية من مخطوطة فتح العليم، في هذه الخلاصـة غـير المـستوفاة، ومـن الجلـيّ أنّهـا سـتكون أكثـر يـسرا واستفاضـة بعد نشر المخطوطة، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.